المحاضرة السّابعة: حركة التّأليف في عصر الضعف

أحس العلماء والأدباء في مصر، والشام ؛ والحجاز، والمغرب العربي بفداحة الخراب الفظيع الذي ألحقه الغزو المغولي التتاري، والنهب الصليبي لذخائر العلوم والآداب ونفائسها، ولمصادر الثقافة العربية الإسلامية؛ وما نجم عن ذلك من فراغ علمي رهيب؛ وأضرار لا تجبر؛ كما أحسوا بثقل المسؤولية الأخلاقية والعلمية والدينية والتاريخية الملقاة على عاتقهم في جمع ما بقي عالقا بالصدور، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه وحفظه من الضياع، فبادروا إلى ذلك وأقبلوا عليه بالتّدريس والتّدوين، فجمعوا وصنّفوا وشرحوا وعلّقوا، فأضحى همّ العلماء والمؤلفين، في الغالب الأعم، هو جمع أشتات العلوم لا الإبداع فيها، وهذا ما أدى إلى نعت هذا العصر بعصر الموسوعات في شتى العلوم. ومن بين التآليف والموسوعات الكثيرة الّتي ميّزت هذا العصر نذكر ما يلي:

1. العلوم الدينية:

لقد نبغ في كل علمٍ أعلام، وفي كل فنٍ أفذاذ، ما تزال مؤلفاتهم مِلء السمع والبصر، ففي ميدان العلوم الدينية كثرت المؤلفات في علوم القرآن، والحديث، والتفسير، والفقه، والأصول، وغيرها، إذ يأتي في مقدمة هؤلاء الأعلام المصلح الإمام أحمد بن تيمية (661 – 728 هـ = 1263 – 1328 م)، وله مؤلفات تَربو على الثلاثمائة مؤلف منها: فتاواه المشهورة، والجمع بين العقل والنقل، والفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان، والواسطة بين الحق والخلق، والصارم المسلول على شاتم الرسول، ومجموع رسائله، كذلك من أعلام هذه الساحة تلميذ ابن تيمية الإمام ابن قيم الجوزية (691 – 751 هـ = 1292 – 1350 م) وهو الذي هذب كتب شيخه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه، وطيف به على جمل مضروبا بالعصى. وأطلق صراحه بعد موت ابن تيمية. ومن مؤلفاته: التبيان في أقسام القرآن، أعلام الموقعين، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية. كذلك شمس الدين الذهبي(673 – 748 هـ = 1274 – 1348 م) حافظ، مؤرخ، علامة محقق. تركماني الأصل، مولده ووفاته في دمشق. رحل إلى القاهرة وطاف كثيرا من البلدان، وكف بصره سنة 741 هـ. تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المائة، منها: دول الإسلام، تاريخ الإسلام الكبير 36 مجلدا، سير النبلاء، العبر في خبر من غبر، الطب النبوي. ومن أعلام العلوم الدينية أيضا جلال الدين السيوطي (849 – 911 هـ = 1445 – 1505 م) إمام حافظ مؤرخ أديب. له نحو 600 مصنف، نشأ في القاهرة يتيما، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل، منزويا عن أصحابه جميعا، كأنه لا يعرف أحدا منهم، فألف أكثر كتبه. وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها. وطلبه السلطان مرارا فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها. وبقي على ذلك إلى أن توفي، و هو صاحب كتاب الإتقان في علوم القرآن، والأشباه والنظائر، والإكليل في استنباط التنزيل، والمقام يضيق عن ذكر الأعلام و المؤلفات التي تدل كثرتها وتعدد شروحها على اعتناء هؤلاء الأعلام بهذه العلوم.

2. اللغة وعلومها:

ظهرت في ميدان اللغة وعلومها مؤلفات وموسوعات كثيرة من أبرزها: (لسان العرب) لابن منظور (630 – 711 هـ = 1232 – 1311 م)، ويقع هذا المؤلف الضخم في عشرين مجلدًا، وهو موسوعة في اللغة، والتفسير، والحديث، والأدب.كذلك من أشهر الكتب الموسوعية في ميدان اللغة و علومها القاموس المحيط للفيروز آبادي (729 – 817 هـ = 1329 – 1415 م) من أئمة اللغة والأدب. ولد بشيراز. وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم

والهند. وانتشر اسمه في الأفاق، حتى كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير. ومن المؤلفات الضخمة في ساحة اللغة وعلومها المزهر في اللغة للسيوطي، و(المزهر) جزءان. ومن أشهر كتب النحو و الصرف: ألفية ابن مالك (600 – 672 هـ = 1203 – 1274 م) ولد في جيان (بالأندلس) وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها. ولابن مالك إلى جانب الألفية التسهيل والكافية الشافية. وكذلك من المؤلفات الرائعة في ميدان النحو والصرف مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وقطر الندى، وشذور الذهب لابن هشام (761هـ). أما في ميدان البلاغة: فمن أشهر المؤلفات في علوم البلاغة: تلخيص المفتاح والإيضاح للخطيب القزويني (666 – 739 هـ = 1268 – 1338 م). وكتاب المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع للسجلماسي (ت حوالي 704هـ).

3. التاريخ:

أما في مجال التاريخ فلقد اتسع التأليف فيه اتساعا كثيرًا، وخصوصًا في التراجم، يتجلى لنا هذا في: كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان (608 – 681 هـ = 1211 – 1282 م)، وكتاب العبر و ديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (732 – 808 هـ = 1332 – 1406 م) والكتاب جاء في سبعة مجلدات اشتهر ابن خلدون بمجلد واحد منها هو المقدمة والتي تعد مفخرة التأليف العربي إذ يعد أول بحث جامع في علوم الاجتماع والسياسة وفلسفة التاريخ وفيها تناول بالبحث العمران وأسبابه ومنشأ الدول وأسباب رقيها وانحطاطها وغيرها من الموضوعات التي أدخلته التاريخ من أوسع أبوابه. ويأتي كذلك كتاب البداية والنهاية لابن كثير (701–774هـ) وهو عمل موسوعيّ تاريخي ضخم، وهو عرض للتاريخ من بدء الخلق إلى نهايته يبدأ ببداية خلق السماوات والأرض[1] والملائكة إلى خلق آدم، ثم يتطرق إلى قصص الأنبياء مختصرًا، ثم التفصيل في الأحداث التاريخيّة منذ مبعث النبي مُحَمَّد حتى سنة 768 هـ بطريقة التبويب على السنوات. وتبدأ السنة بقوله "ثم دخلت سنة...."، ثم يسرد الأحداث التاريخيّة فيها، ثم يذكر أبرز من توفوا في هذه السنة. أما جزء النهاية ففيه علامات الساعة لغاية يوم الحساب بالتفصيل.

4. الجغرافيا:

أما في ميدان الجغرافيا: فقد كان له نصيبه من المؤلفات أيضًا فهناك كتاب عجائب المخلوقات للقزويني(605هـ–682هـ)، وتقويم البلدان لأبي الفداء الحموي (672–732هـ)، وكتاب صورة الأرض تأليف العالم الجغرافي أبو عبد الله مُحَمَّد بن موسى الخوارزمي، والكتاب مرجع هام في الجغرافيا يحتوي على خرائط أدق من تلك التي وضعها بطليموس واعتمد عليه الكشافة الأوربيون في عصر النهضة كثيراً فكان مرشدهم إلى بلدان العالم الجديد، ومعجم البلدان لياقوت الحموي الرومي البغدادي المتوفي سنة 626 هـ، والكتاب من أشهر كتب الجغرافيا وأحسنها تنسيقاً حيث رتبها وفقاً لحروف المعجم وقد جاء في سبعة مجلدات وفيه تناول اسم كل بلد وما عرف عنه وأشهر من نبغ منه وجاء دقيقاً واسع المجال جمع فيه بين الجغرافيا والتاريخ والعلم والأدب. وكتاب رحلة ابن بطوطة وهو مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد اللواتي الطنجي (1377 – 1304م = 779 – 703).

5. الأدب وعلوم أخرى:

أما في مجال الأدب فقد كثرت الموسوعات، إذ كان يغلب على التأليف في الأدب الخلط بين الأدب والأخلاق، وبين الأدب والعلوم المختلفة، كالتاريخ، والنبات، ولهذا عُرفت هذه المؤلفات في الأدب بالموسوعات، ومن أشهرها كتاب نهاية

الأَرِبِ في فنون الأدب للنويري (667-733هـ= 1279-1333م) الكتاب مؤلف ضخم يقع في ثلاثين جزءاً وبه مباحث واسعة في الفلك والجغرافيا والتاريخ الطبيعي والطب والسياسة والتاريخ والأدب، وكتب في هذا الصّدد أبو العباس القلقشندي (756-821هـ= 1355- 1418) الذي تولى ديوان الإنشاء في عهد السلطان المملوكي الظاهر برقوق، موسوعته المكونة من 14 جزءا "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، وفيها مواضيع وفصول عن أنظمة الحكم والإدارة والسياسة والمكتبات، والتقاليد والملابس في المشرق العربي، وتاريخ الدواوين والوزارات، وفنون الكتابة، وملابس الجنود وأسلحتهم، والألعاب الرياضية، ومظاهر المجتمع العربي، وكذلك علم الخط وأدواته. واعتبرت موسوعة القلقشندي دليلا شاملا في فن الكتابة الرسمية للدولة وفنون التراسل والمخاطبة المكتوبة، وترجمت أجزاء منها للغات أوروبية. وكتاب المستطرف في كل فنٍّ مستظرف للإبشيهي (790- 852هـ= 1388-1446)، وكتاب خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي (767- 837= 1366- 1433).

ولم يقف مد التأليف ونشاطه عند هذه العلوم، وإنما امتد إلى الرياضيات ، والكيمياء، والطب، والصناعات، وخير مثال على هذا كتاب حساب الجبر والمقابلة، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن موسى الخوارزمي المتوفي سنة 840 هـ، والكتاب أصل لنشأة علم الجبر، حتى إن الغربيين احتفظوا بمسماه حيث ينسبون إليه الفضل في استحداث هذا العلم، وظهرت أيضا كتب في علم الحيوان ككتاب (المختار من الأغذية) لابن النفيس (607- 687هـ)، و(كشف الكروب في معرفة الحروب) لعماد الدين اليوسفي (696- 759 هـ).

وخلاصة القول أن حركة التأليف زهت في عصر الضعف،حتى احتل العثمانيون المشرق والمغرب العربي، عندئذ تقلص التأليف وتقهقر، وتمكن الذل من النفوس، فخمدت القرائح، واطمأنت الكتب في الخزائن، وضرب الجهل على الأبصار فعمت، وطال عليهم الأمد فغشاها النعاس، وخيم عليها الظلام، فلم تستيقظ إلا بمدافع نابليون بونابرت.